الفصل السادس: الأدب والشباب

يرى المفكر التربوي الدكتور زكي مبارك أن الأساس لبناء الجيل الجديد هو خلق الإيمان بالعدل في تقسيم الحظوظ، بحيث يكون من المفهوم عند الجميع أن في مقدور كل فرد أن يصل إلى أعظم المناصب إذا زود نفسه بالزاد الذي يؤهله لما يتسامى إليه، بلا احتياج إلى وسيط أو شفيع.

وفي البداية نقدم للقارئ حديثه إلى عالم الشباب من خلال رده على رسالة تلقاها من أحد الشبان وتعليقه عليها، حيث يرى أن اعتماد الشبان على الحكومة هو السبب في قتل عزائمهم.

عزيزي القارئ:

إذا كانت الرسالة هي رسالة لشاب مصري فإن ما يشكو منه صاحب الرسالة ينطبق تمام الانطباق على شباب العالم الثالث في كل مكان، ولذا وجب عرض الرسالة بنصها ليقرأها الشباب، وكل من يهمه أمر الشباب:

***

obeikandl.com

الشباب المصري بين التردد والإقدام

كتب إلى موظف شاب لم يشأ ذكر اسمه رسالة جاءت فيها الكلمة الآتية:

«كتبت إليك رسالتي هذه راجيًا منك أن تطرق موضوعًا ما أحوجنا نحن شبان مصر إليه، ألا وهو مرض التردد وخور العزيمة فكثيرًا ما يحاول الإنسان تنفيذ خطة يرسمها، فإذا به بعد أن كان متحمسًا نحو هذه الخطة وما يعود عليه من نتائجها خامل يؤثر الكسل والاسترسال في الأماني والأحلام، وأصارحك يا سيدي بأني من هؤلاء وأن مثلي كثيرون. فإني اقتطعت دراستي والتحقت بوظيفة وأصبحت أندب حظي لعدم استكمال تعليمي، وكل همي أن أواصل الاستذكار والتهام العلوم حتى أحصل على شهادة أقنع بها نفسي؛ ولكني رغم هذه الرغبة أجد عزيمتي الخائرة تخونني في تنفيذ ذلك رغم محاولتي مقاومتها... وتنقضي الأيام والشهور بل والسنين فأراجع نفسي فأجد أني لم أتقدم خطوة واحدة إلى الأمام، وهذا ما أفزعني من نفسي وجعلني أقصدك كي تعالج هذا المرض. وقد اخترتك من بين الأدباء والمصلحين لعلمي أنك الرجل العصامي الذي طلب العلم وما زال يطلبه دون أن يقف في وجهه ما يعوقه -وما أكثر تلك العوائق- فأرجو أن تقبل رجاء شاب كل ما في استطاعته أن يدعو لك الله من قلبه ليحفظك، والله ولي جزائكم بما تخدمون به الوطن والإنسانية».

ويستخلَص من هذه الرسالة ما يأتي:

أولًا: عندنا شبان لا يرضون بالدون من حظوظ الحياة وتسمو بهم أنفسهم إلى احتلال الصفوف الأولى في ميادين العلوم والآداب.

ثانيًا: يقاسي أولئك الشبان مرارة الخيبة والإخفاق أحيانًا، ويودون أن لا تقف بهم جهودهم عند الأماني والأحلام.

ثالثًا: بين أولئك الشبان من يدرس نفسه ويحاسبها حسابًا عسيرًا يصل به إلى الخوف والفزع والإشفاق.

رابعًا: من أولئك الشبان من يطلب الغوث ويستعين من يرجو أن تكون لديهم كلمة طيبة تنتشلهم من وهاد التردد والخور والخمود.

أما أنا فلست أخشى خطرًا على صاحب هذه الرسالة؛ فإنها تدل على أنه يستوحش من الكسل ويتطلع إلى حياة الجد والإقدام. والشعور بالنقص هو الخطوة الأولى نحو الكمال. وسأحتفظ برسالته ليظل اسمه عندي أعرفه به يوم يقدمه جدُّه وسعيه، وترفعه نفسه إلى بعض ما يريد؛ لأنه لا يصل إلى «كل» ما يريد إلا القانعون بالقليل، والإنسان أسمى من أن تقف نفسه عند مطمع مهما ابتسمت له الحظوظ. وقديمًا حدثنا ابن المقفع أن الرجل الكامل المروءة لا يرى إلا في مكانين ولا يليق به غيرهما: إما مع الملوك مكرمًا، أو مع النساك متبتلًا، كالفيل إنما جماله وبهاؤه في مكانين: إما في البرية وحشيًّا، أو مركبًا للملوك.

على أنه من الخير أن نبحث الأسباب التي تقتل رجولة الشباب في العصر الحاضر وتحبب إليهم الكسل والخمول، وأهم تلك الأسباب:

أولًا: شعور جمهور الشباب بأن المناصب الرفيعة لا يصل إليها الرجل بالعلم الواسع والخلق المتين؛ وإنما يصل إليها عن طريق السفالة والنذالة والانحطاط. وبرهانهم على ذلك أن هناك ناسًا ارتفعوا بلا مؤهلات، وأنهم يتطلعون فيرونَ المرونة والليونة والوصولية هي المؤهلات النافعة في هذا العصر، وأن الاستعداد لبيع الضمير والخلق كاف لأن يصل بالمرء إلى ما يريد من المنازل العالية، وأنهم يرون في المعاهد العلمية وفي الدواوين شواهد كثيرة لهذه الحال. فكم من رجل تبوأ منصبًا وهو لا يدرك خطره ولا يعرف قيمته، وإنما وصل إليه عن طريق التزلف والتسفل والإسفاف، ومن البلية أن يكون فيمن يشغلون مناصب التعليم نفسه أشخاص لم يصلوا إلى مراكزهم إلا لأن رؤساءهم رأوا فيهم صلاحية للتجسس ونقل الأخبار، وهذه ظاهرة شنيعة ملموسة الأثر في كل مكان.

وتلك الفئات الوضيعة تنشر الشر ذات اليمين وذات الشمال، وأهون ما ترمي به الشبان من المآثم هو ما يقررونه في أذهان من يلاقون من زملائهم وأصدقائهم من أن الفضيلة خيال في خيال، وأن الحزم في اقتناص الفرص قبل أن تشرد، وأن الشخصية الكريمة وبال على صاحبها لأنها تحول بينه وبين طيبات الأرزاق.

ولعل الدنيا لم تفسد يومًا كما فسدت في هذه الأيام، فقد استطال الأوغاد، وأصبح الأحرار يعيشون في أوطانهم كأنهم غرباء. وكثيرًا ما نجد الوصولي السافل يقول عن رفيق له نأت به كرامته عن مواطن الضيم والهوان:

«حضرته عامل راجل»!

والمسئول عن هذا التدهور هو الفريق الجبان من الرؤساء الذين لا يأنسون بغير الضعفاء؛ ولا يسلمون الأعمال إلا لكل شاب رخو لا ينتظر منه إلا كلمة «بيك أفندم» كما كان يقول الأتراك.

وأين أين الرئيس الذي يحب في مرءوسيه إباء النفس، وقوة الشكيمة، وصلابة العود؟

أين أين الرئيس الذي يعد مرءوسيه ليكونوا ذخر الوطن ورجاء البلاد؛ فيوصيهم بالترفع عن الصغار والذل، ويغريهم بحب البأس والاستطالة والكبرياء؛ لأنه لا يسقط المصري إلا حيث تخذله نفسه ولا يجد من مضاء العزيمة وعزة النفس ما يدفع به عادية الطامعين.

ونتيجة هذا أن أصبح الشبان يرون أن سلاح العلم والفضل والنبل والشهامة سلاح مفلول، وأن الزاد الأنفع هو التملق والمداهنة والرياء.

وقد أذكر أني لقيت مرة شابًّا أعرفه فسألته عن عمله، وقد قضى عهد الدراسة العالية فأجاب:

«أتمرغ في تراب الميري».

فابتسمت وقلت: لا بأس!

ثم علمت بعد حين أنه يتولى عملًا يلحقه بمن يتمرغون في وحل الميري لا في ترابه!

هذا مع أن الشبان أولى الناس بالكرامة وأجدرهم بالحرص عليها؛ لأن الشباب في ذاته قوة يجب أن تعصم صاحبها من التسفل وهو وحده

حصن يجب أن يمنع صاحبه من الابتذال، والمرء إن لم يقف على قدميه في شبابه، فمتى يرجى أن يستقيم له رأي، أو تصلح له حال! وإذا كان أصحاب السواعد الفتية لا يستطيعون النهوض بأنفسهم، فكيف يلام الكهول على تخاذلهم وهم مهيضو الجناح. ورحم الله من قال:

إذا المرء أعيته المروءة يافعًا فمطلبها كهلًا عليه شديد

ثانيًا: غفلة الشبان عن تقدير الحرية، فإن الزاهدين في الرقي ليسوا إلا قومًا ألفوا الاستعباد، ولو عشق الشبان الحرية وعرفوا فضلها لما سكتوا عن تكميل أنفسهم وتزويدها بالعلوم والآداب.

والفتيان الذين نراهم يدأبون على الدرس بعد التوظف ويطمعون في حال أحسن من حالهم يمثلون الرغبة في الحرية أشرف تمثيل، فأكثرهم يعز عليه أن يظل طول حياته تابعًا ذليلًا يزجر فيزدجر ويؤمر فيطيع.

والعلم هو الذي يصيرنا سادة أنفسنا ويمكننا من نواصي المراتب الرفيعة. ولا يطمع في السيادة إلا من يعد نفسه لها إعدادًا صحيحًا، أما الخامل الراضي عن حاله فلا حظَّ له من الرفعة، ولا نصيب له من الاستقلال. وفي خلق الله ناس فطروا على العبودية وهؤلاء خلقوا لحكمة يعلمها الله، فليكن في ضمير الرجل الحر أنه خلق خلقًا آخر، وأن له أن يبحث عن مكانة عالية تليق بمن خلق ليسود.

ثالثًا: اعتماد الشبان على الحكومة هو من أخطر الأسباب في قتل عزائمهم، فهم ينتظرون أن يكونوا دائمًا «مسنودين» بقوة الدولة لا يتقدمون ولا يتأخرون إلا في ظلال من يملكون الأمور. ولكل شاب عذر من حكومته: فهو يعلل تأخره بتأخر الحكم في زمانه، ويأسى على أن لم

يولد في عهد من كانوا يمنحون الحظوظ بغير حساب! وقديمًا قال المتنبي:

أتى الزمانَ بنوه في شبيبته فسرَّهم وأتيناه على الهرم

فتلك إذن علالة قديمة يستريح إلى ترديدها المتخلفون. ونحن لا نريد لشبابنا أن يعتمدوا على الدولة في إنهاضهم من كبواتهم، فإنه لا خير فيمن يعتمد على سواه، إنما نريد لهم أن يكونوا أقوياء بأنفسهم، وأن يكون الفتى قوة كاملة هي في ذاتها دولة ذات حول وطول وسلطان.

١٩٣١/١٠/٢١

من على صفحات كتابه (البدائع)

الجزء الثاني، ص٩١

***

oberkandl.com

أخلاق الناس[1]

قلِّب ما شئت من مؤلفات القدماء فسترى أن المؤلفين كانوا يهتمون في أكثر الأحيان بمحاربة الرذائل الاجتماعية، لا سيما الغيبة والنميمة لأنهما من أخطر أسباب القطيعة بين الناس؛ أما المؤلفون في العصر الحاضر فيرون الغيبة والنميمة من الموضوعات البالية التي لا تصلح لأقلام المحدثين، وإني لأكتب هذه الفقرات في هيبة وحذر خشية أن يقول قائل: ما هذه الرجعة إلى أوهام الأولين!

ويسألني من أرى من الأصدقاء: أين تسهر؟ وأين نراك؟ والسهرات عند هؤلاء هي جلسات سخيفة تؤكل فيها لحوم الناس ويجري فيها من السفه والبذاءة ما يندى له الجبين! ويا ويل من تكرم عليه نفسه فلا يشترك في لغو الحديث، فهو عندهم ثقيل الظل بارد الأنفاس!

والتظرف في عصرنا هو مضغ أخبار الأدباء والشعراء والمؤلفين. وفي شباب اليوم أفراد يعيشون من هذا الرزق الحرام، فهم زينة الأندية الرقيعة التي لا تجري فيها كلمة خير، ولا تعرف زواياها غير الإفك والبهتان من عبث القيل والقال. وفي كهول اليوم طوائف تتلمس هذه الأنواع البشرية التي تحسن تلفيق الأراجيف والأكاذيب، وإنك لتعجب كيف يتفق لمن يسمونهم أدباء الشباب وأدباء الكهول أن يجيدوا شيئًا، وهم يقضون ثلاثة أرباع الوقت في تلك الأحاديث المموجة التي تتنافر مع سماحة الطبع، وسلامة الذوق، ورجاحة العقل.

---

(١) كلمة لزكي مبارك من على صفحات كتابه «البدائع» الجزء الثاني، ص١٨.

أين أسهر؟ أنا أسهر في بيتي حيث آنس بوحشة الليل، فقد ضجرت من إخوان الزمان، وعادت الوحدة أحب إلى نفسي من صحبة من يلبسون ثوبًا للمحضر وثوبًا للمغيب!

أين من يعرف أدب النفس في هذه الأيام؟ وأين الرجل الذي تثق بكرمه ومروءته، وتطمئن إلى أن أذنه لا تفتح لأهل اللغو والفضول ممن يبعثرون النمائم ذات اليمين وذات الشمال؟ وأين من يزن ما يقول، ويفكر في عواقب ما يقول؟ وأين من سلم أديمهُ في هذا البلد فلم تمزقه الأقاويل والأراجيف؟ دلونا أيها الناس على رجل واحد سلم عرضه وشرفه، وحفظ معروفه وجميله، واستطاع الفضل أن يحميه من لغو المرجفين، وكيد المفسدين.

لقد صحبت طوائف من المصريين وطوائف من الأجانب وانتهيت إلى النتيجة الآتية: الغيبة والنميمة من الرذائل الإنسانية يقع فيها المصريون وغير المصريين، ومع هذا لاحظت أن المثقفين من الأجانب قد يستبيحون الاغتياب؛ ولكنهم لا يستبيحون البهتان. فالرجل قد يغتابك ولكنه يتحرج من أن يصفك بما ليس فيك، وقد ينم ولكن نمائمه خالصة من المفتريات.

أما المثقفون منا -وأسفاه!- فيجمعون بين الرذيلتين: النميمة والافتراء.

ومعنى هذا أن من الأجانب من يعصمه الحياء من خلق الأكاذيب، وأن فينا من تنقصه فضيلة الحياء.

إننا نتحدث كثيرًا عن الوطنية، والوطنية لا تقوم إلا على فكرة الوطن، والوطن لا يُحَبُّ إلا حين يكون لنا فيه أصدقاء وأخلاء، فإن المودات والعلاقات هي أساس التقديس للأفكار والأشخاص.

أيها المغتابون والنمامون! أنتم أعداء الصدق والكرامة والوطنية وأنتم أعداء أنفسكم لو تعلمون[1]!

***

(١) ١٩ سبتمبر سنة ١٩٣١.

obeikandl.com

جيل الشباب
سيكون صلة الوصل بين الشرق والغرب

يهتمُّ المرحوم الدكتور زكي مبارك بمصير الأدب العربي، ويرى أن الشباب سيكون صلة الوصل بين الشرق والغرب، ففي كتابه «ليلى المريضة في العراق» وفي الطبعة الثالثة توزيع مكتبة مصر بالفجالة وعلى صفحة ٣٧٢ يقول:

«الذي يهمني هو مصير الأدب العربي، فأنا أعتقد أن تلاميذ المدارس الأجنبية بمصر هم جيلٌ مُخَضرَمٌ سيكون صلة الوصل بين الشرق والغرب، وهؤلاء قد يمدون الأدب العربي بمحصول نفيس إذا استطاعوا إجادة الإنشاء باللغة العربية.

وانضمام هذا الجيل المخضرم إلى جيش الأدب العربي قد يعوض النقص الذي تتعرض له لغة العرب في هذه الأعوام، فالعرب في أعوامنا هذه يريدون أن يخلوا إلى أنفسهم، وهم يصرحون بانسلاخهم عن الأمم الإسلامية، وهذا المسلك قد يقوّي الرابطة العربية لأنه يحصرها في حدود مأمونة الثغور، ولكنه يسوق الأدب العربي إلى هاوية الخمود.

فإذا استطعنا أن نضمن تفوق أبنائنا بالمدارس الأجنبية في اللغة العربية؛ فقد نكون منهم جبهة أدبية تُعيد للأدب العربي مجدهُ يوم كان من الآداب العالمية، ويوم كان في لغتنا أدباء من الفرس والروم والهنود والأسبان.

وهناك جانبٌ لم يلتفت أحدٌ إليه، وهو الحالة الصحية لأبنائنا بتلك المدارس، فهم في الأغلب من أبناء المياسير، وعلى وجوههم نضرةُ النعيم والعافية.

والأدب العربي سيقوى ساعدهُ حين تسنده سواعد أولئك الشبان الأصحاء. وما رأيت أولئك الشبان إلا تذكرتُ الحديث الشريف: «**لأن يَهدي الله بك رجلًا واحدًا، خيرٌ لك من حُمر النَّعَم**». فنقلُ شاب واحد من أولئك الأصحاء إلى ميدان الأدب العربي قد يحوله إلى رياض وبساتين.

وأقول بصراحة: إن الأدب العربي قد شبع من أخيلة الضعفاء والمهازيل من الذين يأكلون الفول ويشربون الماء.

والأدب العربي ينتظر طلائع من أصحاب الأريستوقراطية الفكرية والمعانية.

الأدب العربي ينتظر كتابًا وشعراء ومؤلفين ينهضون به نهضة الأمراء لا نهضة البؤساء.

ولستُ بذلك أتجنَّى على الفقراء من أصحاب المواهب، وإنما أقول: إن الأغنياء يعانون من المشكلات والمعضلات أضعاف ما يعاني الفقراء، وهم لذلك أقدر على تصوير المآسي الإنسانية. وابصرْ بتقلبات النوازع والأهواء والميول.

وقد عرفتُ حافظ إبراهيم وأحمد شوقي معرفة شخصية، وعرفت أسرارهما عددًا من السنين، وصحَّ عندي بعد الدرس أن أحمد شوقي أقل

ذكاء من حافظ إبراهيم؛ ولكن اصطدام شوقي بهموم السياسة وهموم المعاش حوَّله إلى عبقرية ترى بالوهم ما لا تراه العيون.

والأديب الفقير تُغلق أمامه أبواب كثيرة من فهم المجتمع؛ لأنه لا يرى غير ألوان قاتمة من العيش؛ أما الأديب الغني فيحس فرح الحياة وحزن الحياة، ويصل إلى دقائق لا يصل إليها الأدباء الفقراء.

الشبان الأغنياء سيكون إليهم الأمر في الأيام المقبلات وإن كثر التهويل بسيطرة الديموقراطية. فليست الغنيمة في أن يكسب الأدب العربي شابًّا فقيرًا ضعضعه الجوع، وإنما الغنيمة في أن يكسب الأدب العربي شابًّا غنيًّا يدرك قيمة الأناقة في الفكر كما يدرك قيمة الأناقة في الثياب.

وأقول مرة ثانية: إني لا أتجنى على الفقراء من أصحاب المواهب، فلله حكمة في رفع الفقير الموهوب، وإنما أنتظر أن ينتصر الأدب بالأدباء الأغنياء، كما انتصر الإسلام بالمؤمنين الأغنياء.

وإنما ألحُّ في شرح هذا المعنى لأني أرى الأدب العربي يقصر تقصيرًا ظاهرًا في وصف الحياة الاجتماعية، الحياة الشاملة التي تنتظم ألوان البؤس والنعيم من جميع الصنوف، فما عندنا اليوم من رسائل وأشعار وأقاصيص يدور في الأغلب حول جانب واحد من جوانب المجتمع، وهو مجتمع تعددت ألوانه وتمدّدت واشتبكت، وهو ينتظر أدباء يتذوقون طعومه المختلفات ليعرضوه للقارئين في تهاويل مختلفات.

وإن صحَّ شيء مما أرجوه فقد نبعث دولة الأدب من جديد، وهل يرتاب عاقلٌ في أن الأدب العربي لم يزدهر إلا حين قَدَرَ على تصوير ألوان الحضارة في العصر العباسي؟

إنَّ المزية الصحيحة للأدباء الذين سبقونا بالتفوق هي اتصالهم بالآداب الأجنبية، وقدرتهم على التجول في أقطار المشرق والمغرب. وشبابنا الأغنياء سيؤدون هذا الواجب حين يصبحون من أدباء اللغة العربية.

وهل كُتب على لغتنا في العصر الحاضر ألا يكون فيها أدباء يقدرون على الاتصال بمصادر الثقافة في الشرق والغرب، كما كان ذلك من حظها في الأعصر الماضية؟

إنَّ الأديب هو أحوج الرجال إلى اعتلاج العواطف والأفكار والأحاسيس، ولا يتم له ذلك إلا إذا استطاع معاشرة الناس من جميع الأجناس.

وأنا أنتظر أن أجد هذا الجوهر النفيس بين أبنائنا بالمدارس الأجنبية؛ لأنهم أغنياء، ولأنهم يجمعون بين الثقافة الشرقية والثقافة الغربية.

فهل نصل في تثقيفهم إلى ما نريد؟

***

العائق الوحيد هو الطريق التي ندرِّس بها اللغة العربية.

وقد عرفت بالتجربة أن تلاميذ المدارس الأجنبية يرون أساتذتهم في اللغة العربية من الغرباء في بيداء الحياة، وكان الأمر كذلك؛ لأنهم يرون في الأساتذة الأجانب شمائل لا يرونها في الأساتذة الوطنيين، فالأستاذ الأجنبي رجل يتصل مباشرة بالحياة الاجتماعية، وهو يحدِّث تلاميذه بما يفهمون؛ لأنه يعيش كما يعيشون، ولذلك شواهد فصَّلتها في كتاب «ذكريات باريس» وكتاب «البدائع» فلا أعود إليها الآن.

واتصال الأساتذة الأجانب بالحياة الاجتماعية يعطيهم فرصة الابتكار في موضوعات الإنشاء، وفي المحادثات الشفوية، وجعل ظلهم خفيفًا حين يحاورون التلاميذ.

والأستاذ الأجنبي يرى من حقه؛ بل من واجبه، أن يشارك التلاميذ في ميادين النشاط الاجتماعي، وتدفعه الحماسة إلى دعوتهم لمشاهدة ما في مصر من متاحف وحُصون.

أما الأستاذ المصري -ولا سيما أستاذ اللغة العربية- فهو شخصٌ «ملخوم» يرى الحركة تنافي الوقار، ويرى الابتسام من أخلاق السفهاء!!

وقد رأيت منهم أستاذًا يفتخر بأنه لم يدخل دور السينما مرة واحدة، فهو خليفة الشيخ خليل، وهو رجلٌ من أئمة المالكية كنتُ سمعت أنه افتخر في بعض كتبه بأنه لم ير النيل، وإنما قضى حياته كلها فوق حصير الأزهر الشريف!!

ماذا أصنع في توجيه هؤلاء المدرسين لأحولهم إلى قلوب تفرح بالحياة لتغرس في نفوس التلاميذ حب الحياة؟

ماذا أصنع وأنا مفتش من الجامعة المصرية، وآرائي قد تجد من يسيء التأويل؟

رأيت أن أسأل التلاميذ من وقت إلى وقت عما يقرءون من المؤلفات الجديدة وما يشاهدون من الأفلام، ورأيت أن أعرف الفروق بين صلاتهم بالحركة الفكرية في الغرب وصلاتهم بالحركة الفكرية في الشرق، فهالني أن أعرف أنهم يعرفون من الغرب كل شيء، ويجهلون من الشرق كل شيء.

هم يعرفون الغرب لأن أساتذتهم في اللغات الأجنبية أحياء، ويجهلون الشرق لأن أساتذتهم في اللغة العربية أموات!

وكيف لا يموت من يبخل على نفسه بكتاب ثمنه خمسة قروش؟!

لقد حدثت تلاميذ بعض المدارس بأني سآخذ عناوينهم من إدارة المدرسة لأزورهم في بيوتهم على حين غفلة، عساني أعرف كيف يكونون مكتباتهم الخصوصية.

مع أني واثق بأن أكثر أساتذة اللغة العربية ليس في بيوتهم مكتبات.

أليس منهم فلان الذي يعتقد أن كتاب «النثر الفني» من تأليف الجاحظ؟

أليس منهم فلان الذي يظن أن «حديث عيسى بن هشام» من تأليف بديع الزمان؟

لم يبق بدٌّ من توجيه أساتذة اللغة العربية إلى فهم العصر الحديث؛ ليستطيعوا الوقوف على أقدامهم بجانب الأساتذة الأوربيين.

ولكن هناك ما هو أوجب من ذلك.

هناك تغيير الطريقة التي تُدرَّس بها اللغة العربية في المدارس الأجنبية. ولكن كيف أغيِّر طريقة نزلت من قلوب الأساتذة منزلة التقديس؟

كيف أغير تلك الطريقة وحولي أرصادٌ وعيون؟

إن كلمة واحدة من فلان وفلان قد تقصيني عن التفتيش بحجة أني أخاطب المدرسين بما لا يفهمون.

ولكن الله قدَّر ولطف:

فالرجل الذي أقدِّم إليه التقارير هو الأستاذ محمد رضا بك، وهو رجلٌ مُشرق العقل إلى أبعد الحدود.

وقد حدَّثته بما تساميتُ إليه في إصلاح الطرق القديمة لتدريس اللغة العربية. وأنا أحدِّث هذا الرجل عن كل شيء، وللتقارير التي أقدمها إليه صوانٌ خاص، والمفهوم بيني وبينه أن مصر لها في أعناقنا ديون، وأن الصدق في تأدية الواجب هو أشرف ما يتحلى به الرجال.

وقد دخلت عليه منذ يومين، فدارتْ بيننا المحادثة الآتية، وهي نموذج لما نفترع من فنون الأحاديث:

ابتدأ فسألني عن الليسيه الفرنسية المصرية بمصر الجديدة، فقلت: إن مديرها هو المسيو دي كومنين، أعظم أصدقائي في دنياي. فاستطرد وقال: وما رأيك في ذلك المعهد بعد أن زرته مرتين؟ فقلت: إن الغاية نبيلة ولكن تحقيقها صعب؛ لأن هذا الرجل يريد أن يصل تلاميذه إلى البكالوريا المصرية والبكالوريا الفرنسية في وقت واحد، وهذه الغاية مع صعوبتها ليست من المستحيلات.

ثم انتقلنا بسرعة إلى الأصول التي يجب أن يراعيها أساتذة اللغة العربية في المدارس الأجنبية، فقلت: إن الخطر كل الخطر أن يفهم تلاميذ تلك المدارس أن عندنا لغتين: الفصيحة والعامية، فهذا الفهم الخاطئ يُشعر التلاميذ بأن اللغة الفصيحة لغةٌ ميتة، وأن مكانها يشبه مكان اللاتينية بالنسبة إلى الفرنسية والإيطالية.

وهنا يحسن أن نسجل ما اتفقنا عليه في ذلك الحوار الطريف:

اتفقنا على أن التلميذ إذا كتب «محطة باب الحديد» فليس من واجب المدرس أن يشطب كلمة «محطة» ويضع مكانها كلمة «مَحَطّ» بحجة أن هذا هو اللفظ المختار في كتب المطالعة المدرسية.

وإذا كتب التلميذ «بائع متجول» فليس من حق المصحح أن يشطب كلمة «متجول» ويضع مكانها كلمة «جائل».

والتلاميذ جميعًا يقولون «قُط» بضم القاف كما يقع على ألسنة الناس في أكثر البلاد العربية، فليس من الحتم أن نصحِّح هذه الكلمة كل يوم وأن ننص على أنها بالكسر؛ لأن سيرورتها مضمومة تشهد بأن الضم لغة من اللغات، وإن لم تنص المعاجم على ذلك.

وإذا قال التلميذ: «فُرشة» فليس من الواجب أن نفرض عليه أن يقول: «فِرْجَون» لأن الفرشة ذاتها مخففة من الفرجون.

وإذا قال التلميذ: أجفف وجهي «بالفوطة» فلا نفرض عليه أن يقول: «القطيلة» لأن الكلمة الأخيرة مهجورة ومنسية وثقيلة، ولا كذلك الكلمة الأولى فهي مأنوسة ومألوفة لجميع الناس.

وإذا قال التلميذ: جلست على «السفرة» فلا نحتم عليه أن يقول: «المائدة» لأن السفرة كلمة فصيحة، وإن كان العرف نقلها من وضع إلى وضع.

وإذا قال التلميذ: «الليالي القمراء» فلا نلزمه بأن يقول: «الليالي القُمر» لأن الكتاب في العصر الحديث تسامحوا في هذه القضية، ولأن أسئلة الامتحان بوزارة المعارف جاء فيها مرة كلمة «الليالي القمراء» ولأن للشيخ النجار كتابًا اسمه «الأيام الحمراء»، ولأننا نستثقل عبارة «الحدائق الغن» ونستخف عبارة «الحدائق الغنّاء».

وإذا قال التلميذ: «خَطوة» بالفتح فلا نوجب عليه أن ينطقها بالضم؛ لأن الفتح لُغَيَّة، وهو اليوم أسهل وأفصح.

وإذا سكَّن التلميذ بعض أواخر الكلمات فلا نفرض عليه أن يراعي التحريك في كل وقت، إلا إذا كان يهمك أن تختبره في الإعراب؛ لأن من المستبعد أن يكون العرب التزموا الإعراب في جميع المواطن، وهم قد نصوا على أنه يجوز نصب الفاعل ورفع المفعول عند أمن اللبس؛ ومعنى ذلك أن الإعراب لا يُطلب إلا لتحديد المعاني.

وأغلب الظن أن العرب لم يلتزموا الإعراب إلا في موضعين اثنين: الشعر والقرآن.

وإنما التزموا الإعراب في الشعر لمراعاة الوزن، والتزموه في القرآن؛ لأن القرآن نُظِم نظمًا غنائيًا فهو في أغلب أحواله كلام موزون رُوعِيَ في وزنه أن يصلح للترنم والترتيل.

واتفقنا على أن اللغة العربية ليست بدعًا بين اللغات؛ فالتعبير بها يختلف باختلاف أقدار المخاطبين؛ والمدرس الحق هو الذي يفرق بين ما يعبَّر به وهو يُلقي درسًا في مدرسة أولية، وما يعبر به وهو يلقي درسًا في مدرسة ثانوية؛ والمدرس الغافل هو الذي يتكلم بطريقة واحدة في جميع الفصول.

واتفقنا على أن أساليب التعليم لا يجب أن تكون واحدة في جميع المدارس، وإنما يجب أن نراعي مقتضيات الأحوال فنسلك في المدارس الأجنبية غير ما نسلك في المدارس المصرية.

وأصول التربية نفسها توجب ذلك، إنها توجب أن نُخاطب كل تلميذ بأسلوب خاص بعد أن ندرس نفسه حق الدرس؛ لأن الناس يختلفون في العقول كما يختلفون في الوجوه. وهذا لا يمنع من أن تكون هناك سياسة عامة يعامل بها جميع التلاميذ.

واتفقنا على أن مدرس اللغة العربية يحق له أن يكون أقرب الأساتذة إلى قلوب الطلاب؛ لأن عنده فرصًا لا تتاح لسواه، إذ كان يقدر بلباقته أن يجد في دروس المطالعة والمحفوظات والأدب مجالًا لمحادثة الطلبة في معان كثيرة تتصل بالعقل والقلب والوجدان.

ومدرس اللغة العربية يستطيع إذا كان من أصحاب المواهب أن يضع في صدور تلاميذه بذور الشوق إلى المشاركة الجدية في الحياة الأدبية والفنية والاجتماعية، وفي مقدوره إن أخلص لواجبه أن يدفع تلاميذه دفعًا إلى رحاب الواجب في خدمة الوطن الغالي. وهو يستطيع أن يخلق منه رجالًا يفرقون بين المعاني الوطنية والمعاني الإنسانية، بحيث يصبحون فيما بعد من دعائم الحياة القومية.

مدرس اللغة العربية مسئول قبل سواه عن خلق الروح المعنوي في المدارس؛ لأنه يملك التعبير الجميل، ولأنه ارتاض على سياسة القول، ولأن لديه فرصًا كثيرة يستطيع بها توجيه التلاميذ إلى شريف الأغراض وكريم المعاني.

***

ثم انتقلنا إلى موضوع شائك هو تحديد الفروق بين المدارس المصرية والمدارس الأجنبية.

والظاهر أني أحب المدارس الأجنبية حبًّا يجعل ذنوبها حسنات، وقد فصلت رأيي في حضرة رضا بك وارتضاه، فما هو ذلك الرأي؟

من بين أبنائي ثلاثة يتعلمون بمعهد الليسيه في مصر الجديدة. وهؤلاء الأبناء الثلاثة يختلفون عن أخيهم الأكبر الذي يتعلم في مدرسة مصرية: فأخوهم الأكبر يأخذ مصروفه على أسلوب رَتِيب لا يتغير ولا يتبدل، أما أولئك الثلاثة فيزعجون المنزل بالمطالب المتنوعة في كل يوم، وقد قاست أمهم ما قاست حين كنت بالعراق، فلما اختبرتُ الأمر بنفسي ضقتُ به ذرعًا لأول وهلة، ثم تبينت أن تلك المطالب المتنوعة هي

شواهد الحيوية في الحياة المدرسية، فالتلميذ لا يجد الفرصة ليهدأ ويسكن، وإنما يشعر بالمسئولية تتجدد أمامه في كل لحظة: فهو اليوم في حاجة إلى كتاب، وكان بالأمس في حاجة إلى كراس، وهو غدًا في حاجة إلى ثوب جديد للحفلات، وهو بعد شهر سيقدم إلى المدرسة دينارًا للاشتراك في رحلة مدرسية، إلى آخر ما لا آخر له من موجبات اليقظة في المدارس الأجنبية.

أقول: إن هذه المطالب راعتني لأول وهلة، ثم رأيت أن هؤلاء الأبناء حالهم أحسن من حال أبيهم، الأب المسكين الذي يخترق شوارع القاهرة في كل يوم ولا يراها؛ لأنه لا يمتطي ترامًا أو سيارة إلا وهو مشغول بمطالعة الجرائد والمجلات أو مراجعة بعض الأوراق.

أترونني على حق في استحسان هذا المذهب في التثقيف؟

إن كنت مخطئًا فاعذروني؛ لأن اتصالي بالأجانب حبب إليَّ الحركة وزهدني في السكون!

هل تصدِّقون أنني لا أستريح إلى الدعوة التي تكررها الجرائد في الصبح والظهر والمساء، الدعوة إلى الوفاق والاتحاد والائتلاف؟

هل تصدِّقون أني أعتقد أننا نختلف أقلَّ مما يجب، وأنه ينبغي أن لا نعرف غير النضال والصيال؟

هل تصدقون أن التجارب علمتني أن الراحة نذير الموت؟

هل تصدقون أني نفرت من منزل جميل في باريس؛ لأن أصحابه كتبوا على بابه عبارة تشير إلى أنه معروف بالهدوء؟

هل تصدقون أني لم أسترح في بغداد إلا حين اهتديت إلى منزل تحيط به الضوضاء؟

الحق أن مزاجي أفسدته المدنية الحديثة فسادًا لا يُرجى له صلاح.

ولكن هذه هي المدنية، وهذا هو عقل العصر الحديث، وأنتم تطلبون أن نروضكم على التخلق بأخلاق العصر الحديث.

***

ثم ماذا؟ ثم ماذا؟

ثم انتقلنا إلى تعليم البنات، فعرفنا بعد الأخذ والرد أن البنت في المدرسة المصرية تُقتل قتلًا بالدروس، فلا تستطيع أن تكون بهجة البيت في المساء.

والواقع أننا كنا أخطأنا في تقدير مناهج التعليم بمدارس البنات: فقد كانت البكالوريا واحدة للبنات والبنين، مع أن المزاج يختلف بين النوعين أشد الاختلاف.

وقد لوحظ أن البنات في المدارس الأجنبية يعامَلن معاملة تقوم على أساس العطف والرفق، والمفهوم عند الأجانب أن البنت إنما تتعلم لتصلح تمام الصلاحية لتكون ربة بيت.

ولوحظ أيضًا أن مديرات المدارس الأجنبية يحاولن أن يعرفن كيف تعيش العائلات التي تجيء منها التلميذات؛ ليستطعن تلوين الحياة المدرسية بألوان مختلفات.

وهذا شيء قد لا تعرفه المدارس المصرية؛ لأن الصلات قد تكون مقطوعة بين المدرسة والبيت.

والظاهر أني لا أزال أستجيد الوصف الذي أطلقته على مدارسنا منذ أكثر من عشر سنين حين سميتها «مجازر بشرية»، فنظام هذه المدارس لا يتيح فرصة للتعمق، وإنما يُلهي الطلبة بالقشور لكثرة ما يعرض عليهم من العلوم والفنون.

وسيجيء يوم يعرف الناس فيه أن أسلافنا كانوا أبصر منا بالمذاهب التعليمية؛ لأنهم كانوا يعرضون على الطالب علومًا قليلة ثم يفرضون عليه أن يتعمق.

ولو شئت لقلت: إن المدارس الفرنسية تُريح التلاميذ من الدروس يومين كاملين، ومع ذلك لم يقل أحد بأن الفرنسيين تخلفوا في الميادين العلمية.

ولو شئت لقلت: إن الامتحانات عندنا لا تزال جائزة الميزان، فليس من المعقول أن يكون تلاميذنا من الضعف والجهل بالمنزلة التي توجب ألا ينجح من كل مائة غير عشرين أو ثلاثين.

وهناك مجموعة يعرفها جميع المعلمين، وهي مجموعة الأسئلة الخاصة بالامتحانات العمومية، ونظرة واحدة إلى تلك المجموعة تشعر المنصف بأن الممتحنين لا يرون التيسير من الأمور ذوات البال، والأساتذة أنفسهم يحتاجون إلى تأمل يسير حين ينظرون إلى الأسئلة المسطورة في تلك المجموعة، فكيف يصنع التلاميذ وبينهم وبين أساتذتهم من الفروق ما تعرفون؟

ولو شئتُ لقلت: إن أسئلة الامتحانات العمومية يضعها رجال مكدودون من بين المفتشين والمراقبين، والعقل يفرض أن يتفرغ لوضعها جماعة من الأساتذة ينقطعون إليها أسبوعًا أو أسبوعين حتى تسلم من العنت والإرهاق.

أحب أن يشعر التلميذ المتوسط بأن من حقه أن ينجح، أحب أن يشعر التلميذ الضعيف بأنه قد ينجح إذا ضاعف من نشاطه وبذل ما يملك من العافية في الاستعداد للامتحان.

ولكن هذه آمال لا تتحقق إذا غير الممتحنون ما بأنفسهم فعرفوا أن الشهرةَ بالشدة والعنف مطلبٌ سخيف.

ثم ماذا؟

وتحدثنا عن الصلة بين المدرسة والبيت، واتفقنا على أن الواقع أننا نتكلم ولا نفعل.

وأين المدرس الذي يجد من الوقت ما يزور فيه بيوت التلاميذ؟

وأين الناظر الذي يجد في جيبه ما يسعفه بأن يقيم للتلاميذ وآبائهم حفلة أو حفلتين؟

لقد حاولت ذلك بنفسي ثم عجزت؛ لأني كنت أخرج من المدرسة مكدودًا لا أصلح لشيء.

ولو شئت لصرحت بأن المدرسين يعجزون عن متابعة النشاط المدرسي؛ لأن المناهج لا تقيم له أي ميزان، وهو سخرة يقوم بها المدرسون بلا جزاء.

أمَّا بعد: فهذه صورة لساعة لطيفة قضيتها مع الأستاذ رضا بك، فإن أعجبته هذه الصورة فذلك ما أرجوه، وإن رآني أذعت ما لا ينبغي أن يذاع فليعرف أن هذا مذهبي، وعليه أن يعقل لسانه حين يراني.

يا مصر.

إنك تستعدين لأخطار عظيمة في بناء الجيل الجديد، فاعرفي ما تأخذين وما تدعين، واحذري أن يعتقد أبناؤك الأوفياء أنهم لا يلقون منك حسن الجزاء.

وأنتم أيها المدرسون:

ثقوا بأن واجبكم الأول هو التغلب على المصاعب، المصاعب التي تواجهكم في الحياة المعاشية والحياة المدرسية، واعرفوا أن الإخلاص للواجب هو الكفيل بأن يرفع عن كواهلكم أثقال العيش وأعباء التعليم.

إنَّ التدريس مهنة لا يعرف فيها الراحة إلا من يتعب نفسه في تأدية الواجب، ولا يشقى في هذه المهنة إلا من يؤديها بتهاون واستخفاف.

إن العناية التي تبذلونها في إلقاء الدروس تُعدي تلاميذكم بالجد والنشاط، وتروضهم على النظام، وتغريهم بحب التفهم لما يسمعون وما يقرءون.

وأنتم القدوة الصحيحة للتلاميذ، فاحذروا أن تُعدوهم بالضجر واليأس، وتذكروا دائمًا أن المدرس المنشرح الصدر، المبتهج النفس، هو وحده الذي يقدر على جعل المدرسة أحب إلى التلميذ من كل مكان.

إن في الدنيا متاعب كثيرة تنتظر رجال الغد من تلاميذكم، فأعطوهم من ذخائر الأمل والبهجة ما يدفعون به متاعب الحياة في الأيام المقبلات. والله بالتوفيق كفيل».

***

وعاود زكي مبارك الحديث مرة أخرى على صفحات كتاب «ليلى المريضة في العراق» صفحة ٤٢٠ عن التلميذ والمدرس فماذا قال؟

قال: «إن الغيرة على مصر تفرض عليه أن يسجل المشاهد الآتية:

لم أدخل مدرسة في القاهرة أو طنطا أو الإسكندرية أو أسيوط باسم التفتيش إلا حرصت على معرفة ما يقرأ التلاميذ في أوقات الفراغ.

وقد خُيل إليَّ أن هذا أهم من ملاحظة الحضور والغياب.

فماذا رأيت؟

رأيت أن التلاميذ عندنا لا يقرأون المجلات الجدية، وإنما يكتفون بقراءة المجلات الفكاهية؛ وهذا يخالف تمام المخالفة ما شاهدته يوم كنت في العراق، فالتلاميذ العراقيون يقبلون على المجلات الجدية إقبالًا شديدًا، على نحو ما كان يصنع التلاميذ المصريون منذ عشرين سنة.

وأذهب إلى أبعد حدود الصراحة فأقول:

إن مجلاتنا الفكاهية تُقرأ عندنا، أما مجلاتنا الجدية فتقرأ في غير مصر من الأقطار العربية، ولا يقرؤها في مصر غير الخواص.

فما معنى ذلك؟

معناه أننا عجزنا عن رياضة شبابنا عجزًا قبيحًا، ولم نستطع أن نقدم إليهم الجد في صورة مقبولة وأسلوبٍ أخَّاذ، وتلك هي المهمة الحقيقية لسحر البيان.

ومعناه أيضًا أننا لا نفكر في الشبان المصريين حين نكتب، وإنما نفكر في الشبان العراقيين والحجازيين واليمنيين والفلسطينيين والسوريين واللبنانيين، وفي أمثالهم من شبان تونس والجزائر ومراكش. وهذا غرضٌ شريف، ولكن يجب أن يدخل الشبان المصريون في الحساب؛ لأنهم قوةٌ هائلةٌ جدًّا، ولأنهم سيحملون الأمانة العلمية في المستقبل القريب.

وقد جمعتُ المدرسين في إحدى المدارس الأجنبية وصرختُ في وجوههم: لماذا يزهد تلاميذكم في المطالعات؟

فقال قائل منهم: هذا عيب شائع في المدارس المصرية فكيف تُؤاخذ به المدارس الأجنبية؟!

وهذا الجواب أفحمني: لأني أعرف أن أكثر المدرسين عندنا يبخلون على أنفسهم بكتاب ثمنه خمسة قروش، فكيف أنتظر أن يولع التلاميذ بالمطالعات!

ولكن لا بد من التفكير في الخلاص من هذه القناعة العقلية.

إن متوسط ما يقرأ الشاب الفرنسي في العام الواحد ستون كتابًا.

فكيف يجوز أن يمر العام على الشاب المصري من دون أن يطلع على كتاب واحد؟

العيبُ عيب المؤلفين.

وهل ضعف التأليف في مصر؟ مصر لم يضعف فيها التأليف، ولكنه منحرفٌ بعض الانحراف.

المؤلفون المصريون في هذه الأيام لا يفكرون في غير الخواص: فهم يشتغلون بتحقيق الأدب الجاهلي، والنثر الفني في القرن الرابع، وفلاسفة اليونان، والتصوف الإسلامي، وينسون أن من واجبهم أن يحدثوا الشبان عن معضلات العصر الحديث.

ومن المحزن أن أصرح بأن مصر لم ينبغ فيها كاتب يسيطر على عقول الشبان بعد المنفلوطي، وما كان المنفلوطي بأعلم من العقاد أو طه حسين، ولكنه كان أقدر منا جميعًا على الوصول إلى أفئدة الشباب.

وقد ظفر المنفلوطي بمجد لم يظفر بمثله أعاظم الكتاب في باريس.

جلستُ مع المنفلوطي ساعة في المكتبة التجارية فطلبت كتبه وهو حاضر أكثر من سبعين مرة، فمتى يُخلق الكاتب الذي تُطلب كتبه في الساعة الواحدة عشر مرات لا سبعين مرة؟

وقد تعب الدكتور طه حسين في محاربة المنفلوطي، ثم قال يوم مات: يجب أن يُخلق في مصر منفلوطي جديد.